الفارس

قصة

بقلم ناطق خلوصي

في الصباح المفسول بوهج الشمس تحركت حوافر الجواد الاشهب راسمة نقطة البداية على حبات الرمل الداكن.. من وسط الفارس تدلى سيفه طويلا حتى كاد يلامس الارض .. لهذا السيف في قلب الفارس مكانة لا تدانيها مكانة اي شيء اخر .. انه يحمل نكهة تاريخية معتقة حيث ظل لمئات من السنين ارثا مقدسا يرثه الابناء عن آبائهم جيلا بعد جيل الى ان آل اليه اخيرا منذ سنوات ـ وفي بيته ظل السيف زمنا ، معلقا بشكل مهيب على جدار طيني نظيف ولكن الغبار المتساقط عليه عبر الايام لم يخف آثار الدماء المتجمدة على وجهه .

في لحظات مفاجئة سار الفارس ـ ربما في حالة لاوعي ـ بخطوات محمومة باتجاه السيف المعلق على الجدار ووقف امامه طويلا ، ثم ما لبث ان رفعه عن الجدار وحمله معه وامتطى صهوة جواده الاشهب .

ليس امام الفارس غير امتداد لا متناه من الرمل وغير الكثبان التي تتناثر كالقبب المبنية على قبور الموتى في مقبرة قديمة .. كان ظل الفارس يرتمي على الرمل وما يلبث ان يصبح اكبر فاكبر حتى يتعملق ..

مد يده الى السيف يتحسسه ـ قد تكون هذه الرحلة بابا ينفتح على الموت ! ساوره تردد مشوب بالقلق .. منذ صباه اصيب بنوبة متشنجة من التردد ما زال يعاني منها رغم انه اجاز عتبة الاربعين . لم يكن قادرا على ان يختار بسهولة .. يوم مات ابوه سحبته زوجة ابيه الثالثة من يده الى حيث يتدلى السيف على الجدار وقالت له: «لقد ورثت هذا السيف عن ابيك ! » وكانت تلك العبارة قد حركت في داخله هزة من الكره لابيه .. انه الابن البكر وعليه ان يحسن التصرف في تحمل المسؤولية التي القيت على كتفيه .. ولكن ما الذي يفعله بهذا السيف الذي يشده الى ما لا يحب ؟.. وتذكر ان اباه المرحوم ابقى السيف قطعة اثرية معلقة على جدار طيني فما الذي يمنعه من ان يبقيه في مكانه ؟

كان الهواء يلاعب كوفيته الناصعة البياض .. وتتصاعد ذرات من الرمل لتترسب على وجهه الاسمر البيضوي الشكل ، وتتسرب الى فمه وانفه فتعيق تنفسه قليلا . قد يكون الارتداد قرارا ذاتيا مقبولا لديه ولكنه في نفس الوقت سيكون عملية لها مردودها المخجل ـ مرة هي الحياة ولذيذة معا !! يعرف ان هناك من يسير عاريا تحت لهب الشمس الصيفية المحرقة ، ويشعر بالرضا وهو يتحسس ملابسه الانيقة المنتقاة بعناية ..

ـ متى تعود يا ابي ؟

حفر هذا السؤال مكانا له في ذهنه .. كان صوت (علي) يرن في اذنيه ـ لحوح هذا الصغير في تساؤله الى حد الازعاج احيانا ـ ساوره شعور بان سؤالا كهذا حق مشروع مارسه (علي) معه .. حين يعود سيدوخه بسلسلة من الاسئلة : (اين كنت يا ابي ؟ وماذا فعلت؟ ولماذا اخذت هذا السيف معك ؟ وكيف كانت النتيجة ؟ ...). ليس في ذهنه الان ما يستطيع ان يرد به على هذه الاسئلة ولكن قد تتقاذف الاجوبة الى وجه الصغير ذانيا وبشكل عفوي حين يعود .

قد يعود وسيفه يقطر دما ! وقد يعود وكوفيته الناصعة البياض ملطخة بالدم او بالوحل .. هذه احتمالات واردة في ذهنه . واقحم احتمال جديد نفسه في ذهنه ، قد يسبت بين طيات الرمل في فصل القيظ .. فزع لهذا الاحتمال المرعب . السبات في موسم القيظ ظاهرة مثيرة للخجل .

حين يقف هذا الاحتمال الجديد على قدميه ، ستمتد الالسنة لتنهش لحم جسمه وهو واقف ثم لا يلبث ان يتحرك هيكله العظمي ليسقط بعدها في حفرة عميقة من الوضاعة ..

كانت ارجل الجواد تغوص في الرمل احيانا فيخلصها بعناد . تحسس سيفه من جديد . كان يمتد حتى يكاد يلامس الارض .. شعر بأن الجواد قد بدأ يحس بالتعب ولكنه كان يواصل السير تحت الشمس .

***

عند الظهيرة عاد الفارس من رحلته مهزوزا .. كان وجهه مغسولا بالرمل ، وجسمه ينضح تعبا وألما وكانت انفاسه لاهثة . وضعوه على سريره وعلقوا سيفه الملطخ بالدم فوق رأسه .. علقوه على الجدار من جديد !..

في باحة الدار سألت امرأة قريب له زوجته :

ـ كيف حاله الان ؟

ـ انه في حالة خدر كامل ..

وفي خارج الجدران الطينية دار همس ما لبث ان تحول الى

لغط مسموع :

ـ يقولون انه يحمل جراحا في ظهره !

ـ وان بعض جراحه قاتلة .

ـ لقد تعفر وجهه بالتراب .

ـ انهزم !

ـ انهزم .. انهزم ..

وقال رجل يعتمر عمامة خضراء :

ـ لم يزرني قبل ان يبدأ الرحلة .

وقال رجل آخر :

ـ لبس رداء البداوة حين رحل ..

كانوا خارج الجدران الطينية يجيدون فن التحدث عنه .

حين رفع رأسه من الوسادة كان الوقت ليلا وكانت الجراح التي في ظهره تؤلمه بشكل قاس . فتح عينيه على كتلة من الظلام المكثف ولم يكن هناك بصيص من نور، من خلال الشقوق الضيقة في الجدران تسرب الى اذنيه صوت عويل الريح الصحراوية الموحش . احس بطعم الرمل مالحا في فمه ، وفرك عينيه ولكن الظلام كان اكثف من ان يمنح عينيه حرية الرؤية بوضوح .. مد يده الى ظهره وأحس بسائل لزج ببلل اصابعه .. تأوه قليلا وأراد ان يصرخ .. لا يعرف اين هو الان بالضبط ! ملفاة حدود الزمان والمكان عنده الان.. تترافص الصور السوداء المحمومة في رأسه . كان متعبا حين سقط فتوالت عليه الطعنات . كان شبه اعزل ولم تسنح له الفرصة لان يمارس استعمال سيفه الطويل الا قليلا .

كان ضوء الفجر قد بدأ يتسرب عبر كوة صغيرة في الجدار المطل على باحة الدار وبدأت معالم الاشياء تتبين امامه . حين سقط لامست عظامه الرمل الساخن .. ان اضلاعه تلامس الان فراشا وثيرا من الصوف .. اخذ يجول ببصره في ارجاء الغرفة ، وتجمد بصره عند خط يمتد طويلا كالافعى على الجدار .. انه مرة اخرى !! شهق بعنف .. لو ان لاسنانه القوة على ان تقطع الحديد لتناوله الان وكسره الى قطع صغيرة ! مد يده ليلقي به بعيدا ولكنه وجد انه غير قادر على الوصول اليه وهو في حالته الراهنة . صرخ صرخة افزعت زوجته التي كانت ترقد بقلق في غرفة مجاورة . فجاءت مسرعة . أيطلب اليها ان ترفع هذا السيف الطويل المعلق فوق رأسه وتلقي به في مكان مجهول ؟ كان وجهها مشرقا رغم مسحة الوجوم التي كانت بادية عليه. منذ تزوجها عرف انها تعشق الشهامة .. وقفت عند رأسه في حالة تأهب لتلبية اي طلب لديه .. نظر الى السيف وكانت قطرات من الدم ما زالت ندية . قطرات جديدة . قد يكون هذا الدم دمه هو . فحين سقط على الرمل سقط السيف تحته .. هذه اذا طبعات جراحه على وجه السيف ..

اغمض عينيه واسند رأسه الى الجدار .. صاحت زوجته :

ـ ما بك ؟ أانت بحاجة الى شيء ؟

ـ اريد قليلا من الماء .

كانت قطرات الماء تنسل الى جوفه المحموم في حين كانت عيناه تختلسان النظر الى قطرات الدم العالقة بالسيف .. ماذا لو تحول الماء الى دم !

ـ اذهبي .. فانا بخير ..

انسحبت زوجته الى الغرفة الاخرى بهدوء .. لم يكن بمقدورها ان تعارض . المعارضة ، عنده ، قمة الدناءة .

***

في ليلة مشحونة بالغضب نهض الفارس على قدميه .. تحسس جراح ظهره فوجدها قد التأمت .. سار وهو في حالة وعي كامل ، واخرج من زاوية الغرفة كوفية حمراء جديدة . كانت كوفيته البيضاء ملطخة بالدم .. رفع السيف الذي كان يمتد اطول من قبل وحمله معه .. ومع تسلل اول خيوط الفجر الى باحة المنزل امتطى صهوة جواده الاشهب وغاب في رحلة جديدة ..

العراق ـ كربلاء

ناطق خلوصي

السيف والقنديل

(١)

عندما غاب عن الارض ،
نداء الانبياء
سكت الله ،
وأهدى صوته ،
لضحاياه ،
فكان الشعراء .

(٢)

يا احبائي ،
من منكم نبيّ ،
صوته ،
صوت اله
يا احبائي ،
من يكسر سيف الموت
عن نهر حياه .

(٣)

في شتاء الحب ،
في ليل جليد الكلمات
يسأل العاشق ،
عن نار ،
وعن نجم يضيء انظلمات
آه .... من يحملَ قلبا ،
جرحه ينزف نار
يمنح الانسان ،
في ليل شتاء الحب ،
قنديل اخضرار .

(٤)

يا أحبائي ،
شمس الاغنيات
سقطت في البحر ،
والبلبل غنى قمر السجن ،
فلما غاب في الدائرة الزرقاء ،
مات .
يا أحبائي ،
متى ينشق ليل العالم الصخري ،
عن شمس جديده
عن نبي ،
ينزل الوحي ،
على أهداب عينيه ،
قصيده .

بغداد

حسين جليل